ـباع مكانته السابقة، كمبدع يسهم في اعادة ترتيب الوقائع والاحداث »(١٥). ان الربط بين البطل وضرورة التعبير عن الحاجات والضرورات، يعني انه «لا يمكن للرواية العربية ان تدرس دون الظروف القومية والاجتماعية، في الوطن كله، مع ملاحظة بعض التباينات الجزئية بين الاقطار العربية»(١٦). ان القول باعتبار هذه التباينات الجزئية، ينسجم مع ما ذهبنا اليه، من ان خصوصية غسان كنفاني المواكبة لحركة مجتمعه، تنعكس على مواقف «البطولة» في روايته، لأن هذه التباينات الجزئية، الخاصة بالقطر الفلسطيني، جعلت لكل مرحلة «بطلها»، على اعتبار «ان اختيار القصة هو اختيار البطل. ولكن البطل لا يمكن اختياره، انه مفروض. والروائي الصحيح، روائي العصر، هو الذي يحس احساساً مأساوياً بهذا الفرض. فهو اما يتناوله بالفن، او لا يكون لفنه اي تأثير»(١٧). ان استجابة غسان الفنية، التي منحت حياة روائية لشخوص بعينها، فرضتها المرحلة التي يمر بها ويعيشها مجتمعه الفلسطيني، هي التي جعلت اعماله الروائية تعبيراً فنياً عن حركة هذا المجتمع، وجعلت لفنه هذا التأثير الذي لا يزال حياً ومستمراً، ولشخوصه ـ البطلة قدرة الشروع الانساني المعبر عن طموحات المرحلة وتطلعاتها، ضمن اطروحات المرحلة وآفاقها، التي كان البطل ـ دائماً ـ مرهوناً في تحركه بموازين القوى السائدة في المرحلة، ومدى قدرة امكانياته الذاتية على ان تكون في مستوى التعامل مع موازين القوى هذه. ان مستوى التعامل المرهون، بدوره، بالامكانيات الذاتية المتوفرة للشخوص في الواقع، هو الذي اوجد انواعاً من البطولة في الرواية، تعبر عن مراحل الواقع، وتعكس تبايناتها الانسانية.

١ ـ البطل: الضحية ـ المنفي

اذا كان البطل نتاج البيئة والتعبير عن اطروحات عصره، فليس من الممكن ان يزيف الروائي الصادق احجام الشخوص، الذين يتحركون على سطح الواقع، ويسهمون في صنع القرارات وتوجيه مسار الاحداث. ولكن الروائي الصادق هو الذي يربط بين حجم البطل ومستوى حركته، وبين امكانياته الذاتية المتاحة وحيثيات العصر، فهذه الامكانيات الذاتية تدور في فلك ظروف العصر، الفكرية والسياسية، وتتعامل معها بشكل واقعي، بعيداً عن المثاليات، التي تقفز عن القوى التي تشكل هذا الواقع وتتحكم في مصيره. وكلما كان الروائي مدركاً لواقعه، فاهماً، بوعي، لما يتفاعل في داخله، كان ابطاله قادرين على السير المنظم في طرقات مجتمعهم، يسهمون في حركته ويصنعون الحدث اللازم. وهذا يعني التحرك، ضمن الشرط التاريخي لكل مرحلة، هذا الشرط الذي يستوعب مجمل العلاقات القائمة، فيكون التعامل معها، بغرض فهم واستيعاب التناقضات الاساسية، التي تحدد دور الشخصيات ومواقفها.

ففي السنوات الأولى التي اعقبت نكبة ١٩٤٨، كانت الظروف الحياتية والنفسية التي مرت بالشعب الفلسطيني قاسية، الى حد جعله يعيش سنوات طويلة لا يفكر الا في كيفية الخروج من هذه الظروف المعيشية القاسية، ومحاولة تجاوز حالة الذهول، التي لم يكن اللوم ـ آنذاك ـ قادراً على فهمها او التأقلم مع مقتضياتها. ولم تكن الجموع قادرة على تصور ان يُقتلع المرء من ارضه وبيته، في لحظة بالغة المأساوية، ليصبح لاجئاً مشرداً